

الأمثل في تفسير كتاب الأ المنزل

[161] بعين بصيرة ولبّ شغول. ثمّ إلى الأرض: (وإلى الأرض كيف سطحت). فلينظر الإنسان إلى كيفية هطول الأمطار على الجبال لتسيل من بعدها محملة الأتربة كي تتكون بها السهول الصافية، لتكون صالحة للزراعة من جهة ومهيئة لما يعمل بها الإنسان من جهة أخرى.. ولو كانت كلّ الأرض عبارة عن جبال ووديان، فما أصعب الحياة على سطحها والحال هذه! ولا بدّ لنا من التأمل والتفكير في مَن جعلها تكون على هذه الهيئة الملائمة تماماً لحياة الإنسان؟.. ولكن، ما علاقة الربط بين الإبل والسماء والجبال والأرض، حتى تذكرها الآيات بهذا التوالي؟ يقول الفخر الرازي في ذلك: إنّ القرآن نزل على لغة العرب، وكانوا يسافرون كثيراً لأنّ بلدتهم بلدة خالية من الزراعة، وكانت أسفارهم في أكثر الأمر على الإبل، فكانوا كثيراً ما يسرون عليها في المهامة والقفار مستوحشين، منفردين عن الناس، ومن شأن الإنسان إذا انفرد أن يقبل على التفكير في الأشياء، لأنه ليس معه مَن يحدثه، وليس هناك شيء يشغل به سمعه وبصره، وإذا كان كذلك لم يكن له بدّ من أن يشغل باله بالفكرة، فإذا فكر في ذلك وقع بصره أوّل الأمر على الجمل الذي ركب، فيرى منظراً عجيباً، وإذا نظر إلى فوق لم ير غير السماء، وإذا نظر يميناً وشمالاً لم ير غير الجبال، وإذا نظر إلى ما تحت لم ير غير الأرض، فكأنّه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوة والنفرد عن الغير حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النظر، ثمّ إنّّه في وقت الخلوة في المفازة البعيدة لا يرى شيئاً سوى هذه الأشياء، فلا جرم جمع اللاه بينها في هذه الآية (1). _____ 1 - تفسير الفخر الرازي، ج31، ص158.